سلسلة مقالات القديس الأنبا ساويرس
البطريرك الانطاكي

٢٢

طوبى للرحماء لأنهم يرحمون

مليكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

سلسلة مقالات القديس الأنبا ساويرس
البطريرك الانطاكي

٢٢

طوبى للرحماء لأنهم يرحمون

عن الآيات التي في الانجيل المقدس القائلة :
« طوباكم أيها الساكنين لان لكم ملكوت الله . طوباكم أيها الجياع الآن لانكم تشبعون . طوباكم أيها الباكون الآن لانكم ستضحكون » .
« ولكن ويل لكم أيها الاغنياء لانكم قد نلتم عزاءكم . ويل لكم أيها الشباعى لانكم ستجوعون . ويل لكم أيها الضاحكون الآن لانكم ستحزنون وتبكون » لو ٦ : ٢٠ — ٢١ ، ٢٤ — ٢٥ .

مترجم عن الفرنسية من الكتاب الثالث من الجزء السادس والعشرين من مجموعة

PATROLOGIA ORIENTALES

R . graffin – F. Nau

Les Homélies Cathédrales de Sévère d'Antioche

Publiées et traduites par

Maurice Brière

مليكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

حينما أرى بعض الناس يستمعون إلى كلمات الإنجيل بعدم انتباه ، ويضحكون بدون سبب من وصايا مخلصنا ، معتقدين أن الوصايا مستحيلة رأنها لا تتفق مع الطبيعة ، فإنى أتعذب مثل هؤلاء التجار الذين بحثوا عن اللآلىء الثمينة حسب قول ربنا ، وبعد أن حصلوا على بعضها وأرهقوا انفسهم جاهدين فى الاعمال التجارية ، استسلموا فى النهاية للراحة ؛ فرأوا البعض ممن لاخبرة لهم ولا دراية باستعمال هذه الأشياء حتى لربما يغطون اللؤلؤة الثمينة برصاص عديم القيمة أو بإحدى المواد التى لا بريق لها ولا قيمة ايضاً ، فاغتاظوا وغضبوا ؛ ثم هبوا فى حماس ضد هؤلاء الناس الذين لا يتذوقون الجمال وليس لهم به خبرة وهم يصيحون قائلين : « ماذا تفعلون أنتم الذين تغطون بريق اللؤلؤة وتألقها إذ تكسوها مادة قليلة القيمة وتضيفون إليها قبحاً بدلا من أن تكسبوها جمالا كنتم تتوقعونه ؟ لقد كان يجب أن تؤلفوا بين الحجر الذى له بياض الثلج وبين الذهب الذى يشبه الشمس وبذلك تكملون جمال المنظر الفريد بالتناسق بين الألوان الجميلة ».

بين المساكين بالروح والاغنياء المترفين :

فإنى كذلك حينما أقرأ كلمات الرب التى كتبها لوقا البشير : « طوباكم أيها المساكين لان لكم ملكوت الله . طوباكم أيها

الجياع الآن لانكم تشبعون . طوباكم ايها الباكون الآن لانكم ستضحكون. ولكن ويل لكم ايها الاغنياء لانكم قد نلتم عزاءكم ، لو ٦ : ٢٠ - ٢١ ، ٢٤ . بالاختصار كنت أشعر انكم من ناحية لم تتوبوا بقلوبكم ولم تحزنوا بسبب هذه الكلمات كدأبكم ، ومن ناحية أخرى سمعت البعض يقول: « حاشا ، لن يصيبنى شيء من هذا ، ان اصبح فقيراً أو يائساً محتاجاً ، أو احزن وأبكى موت أحد اقربائى ! بل بالعكس ارجو ان امتلىء بالاموال والخيرات وأتمتع بها ، وأرى الغنى يأتينى من كل جانب ، فيطيب لى العيش وأكون مسروراً ، ألهو وأتشهى الملاهى ، واروّح عن نفسى وتكون حياتى خالية من كل حزن ! » .

قول السيد : «طوباكم ايها المساكين لان لكم ملكوت الله » (لو ٦ : ٢٠) نور للبصيرة :

انى أصرخ فى هؤلاء مثل هذا التاجر ، بعد تجارة قد طال بى أمدها، حتى حان لى ان اركن للراحة، إلا انى ما كنت لاحتمل احتقارهم لهذه الاحجار الكريمة والدرر العظيمة الثمينة .

ايها المختارون :

ان تلك الكلمات الحية حقيقة ، الطاهرة المقدسة السماوية ، حينما تقبلها الانفس الذهبية المتنورة يتألق البريق الذى يشع منها؛

ولكن حينما تسقط فى قلوب رصاصية أو بالحرى فى قلوب طينية، أو فى قلوب الخنازير - حتى استعمل الفاظاً اكثر ملاءمة ، فهى تختفى وتستتر فى ظلمات عـــدم التبصر ، بينما يغمضون اعينهم طواعية ، وان كانوا فتحوها قليلا ما كان البرق يمرّ دون أن يرى . لذلك كان مخلصنا يقول : « لا تعطوا القدس للكلاب . ولا تطرحوا دركم قدام الخنازير. لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم » مت ٧ : ٦ .

فبعد أن داسوا بأقدامهم لعدم تبصرهم بريق الكلمات الإلهية وشوهوه ما استطاعوا ، لانهم لم يروا ولم يفهموا ، يحاولون مراراً كثيرة ان يستغلوا المناقشة . فيثيرون الاعتراضات ، معتقدين بذلك انهم يستطيعون ان يسقطونا ويغلبونا فى المعارك.

ان ارادوا فليميلوا آذانهم ويطهروها قليلا من الحمـــأة وينصتوا إلى رقة الكلمات الإنجيلية ويستمعوا إلى صوت العقل. لم يقرر الكتاب المقدس ابداً أن من كان صفر اليدين من الخيرات هو المسكين ، ولا عكس ذلك ان الإنسان الممتلىء بالخيرات هو الغنى . ولكنه يعلن الطوبى لذاك الذى يكون مسكيناً فى فكره مسكنة تستحق المديح ، وديعاً فى اسلوبه ، يعرف فضل الله فيما اعطاه ولايشتهى ما لم يُعط . فلو أن احداً لايملك شيئاً، ولكنه

يشتهى الخيرات ، فإنه يكون مختنقاً بشهوة الغنى ، يمتلك القليل ولا يكتفى بالقوت والكساء حسبما حدده قانون الرسول بولس عن الكفاف إذ يقول : « فإن كان لنا قوت وكسوة فلنكتفه بهما » ١ تى ٦ : ٨ .

من كان هكذا فهو ليس المسكين المطوّب ، بل هو فى الواقع غنى بائس ، فإنه بسبب الطمع والرغبة فى الحصول على أكثر من حاجته ، يريد فى قرارة نفسه أن يكون غنياً ويتجه فى ذلك اتجاهاً شريراً .

فإن ما نجده فى انجيل لوقا البشير بصفة عامة « طوبا كم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله » لو ٦ : ٢٠ . يقول متى البشير موضحاً معناه الخاص : : « طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات » مت ٥ : ٣ .

† † †

الأغنياء المغبوطون

فمن له الخيرات الوفيرة وينعم بامتلاكها ، فليسمع بولس الرسول الذى كتب إلى تيموثاوس : « أوصِ الأغنياء فى الدهر الحاضر ان لا يستكبروا ولا يلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى بل على الله الحى الذى يمنحنا كل شىء بغنى للتمتع . وأن يصنعوا صلاحاً وان يكونوا اغنياء فى أعمال صالحة وأن يكونوا اسخياء فى العطاء كرماء فى التوزيع . مدخرين لانفسهم اساساً حسناً للمستقبل لكى يمسكوا بالحياة الأبدية » ١ تى : ١٧-١٩ .

ومن ذا الذى يفعل ذلك بالحقيقة ؟

هو ذلك الذى يملك مالا ، ليس لنفسه . بل للمحتاجين ، فلا يكون مثل ذلك الغنى الذى يرثى لحاله ، بل يصح عليه أنه ذلك المسكين بالروح ووارث ملكوت السموات .

ألم يكن ايوب الصديق فى حالة الأزمنة الصعبة وفى سبيل التقوى والفضيلة غير المسلوك يفكر تفكيراً كاملا بحسب الإنجيل ؟ كان فى احلام الملوك ينعم بوفرة الممتلكات ، وفى عدم اهتمامه بالمادة اتخذ لنفسه اسلوب الحياة الفقيرة ، فلم يكن متشبثاً بالغنى الذى كان يأخذ طريقه إليه ، بل كان يغترف منه بيد

صفية نخبة ولا يخفيه فى الأرض ، لكى ينال الحرية ويقول للرب الذى عنده ، بعد تجربة القروح الغريبة ، مقراً من جهة ولا جل تعليمنا لكى نتمثل به من جهة أخرى :

« ان كنت قد جعلت الذهب عمدتى أو قلت للابريز انت متكلى . ان كنت قد فرحت إذ كثرت ثروتى ولان يدى وجدت كثيراً » .

« فهذا ايضاً إثم يعرض للقضاء لانى اكون قد جحدت الله من فوق » اى ٣١ : ٢٤ - ٢٥ ، ٢٨ .

فهو من ناحية يبين بهذه الكلمات انه يحتقر المادة ، ومن ناحية اخرى يبين مقدار الثروة التى كان ينفقها عن سعة بغية ان يصير مسكيناً بالروح ، غنياً فى سخاء وكرم ومحبة . فلنستمع إليه يقول :

« غريب لم يبت فى الخارج . فتحت للمسافر ابوابى » اى ٣١ : ١٦ - ١٧ .

وايضاً قبل ذلك : « ان كنت منعت المساكين عن مرادهم او أفنيت عينى الأرملة . او اكلت لقمتى وحدى فلا اكل منها اليتيم » اى ٣١ : ١٦ - ١٧ .

ابراهيم قدوة للأغنياء

بنفس هذا الاسلوب كان أبونا ابراهيم ايضاً غنياً ؛ فكانت لديه الأملاك الكثيرة من كل نوع ، وفضلا عن ذلك كان مسكيناً بالروح يحتقر المادة كل يوم ، بعيداً عن شهوة الملكية الزائدة عن الحاجة ، لدرجة أنه بعد ان حارب خمسة ملوك وكانوا قد أتوا لمحاربة سدوم وعامورة ، وانتصر عليهم فى المعركة وأسرهم ، كان يحتقر الغنيمة ويقول لملك سدوم الذى كان قد هب لمساعدته ويأمل أن يكرمه بجزء منها :

« رفعت يدى إلى الرب الإله العلى مالك السما والارض لا آخذن لا خيطاً ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك . فلا تقول أنا اغنيت ابرام . ليس لى غير أكلة الغلمان . واما نصيب الرجال الذين ذهبوا معى عانر واشكول وممرا فهم يأخذون نصيبهم » تك ١٤ : ٢٢ - ٢٤ .

ان هذه التعبيرات وهذه الألفاظ كانت نابعة حقيقة من فكر مسكين بالروح . يقول : انى احتقر النصيب الذى يليق بى بسماحة ؛ يكفى خدمى وعشيرتى أن يأكلوا فقط . اما الذين ذهبوا معى فى نفس الوقت وساندونى ، فليعطوا نصيبهم من الغنيمة .

باطل ما يأتي من المجد الباطل؛ هل أبدر كريماً بتقديم هدايا مما للغير؟

بل يستطيع المرء أن يمارس الحياة الفلسفية الحكيمة جيداً بما له . هذا ما كان يفعله بولس الرسول ايضاً ، إذ يوصي الذين يبشرون بالإنجيل والذين يلازمون المذبح ، بأن يعيشوا من الإنجيل ومن المذبح: « ألستم تعلمون أن الذين يعملون في الأشياء المقدسة من الهيكل يأكلون . الذين يلازمون المذبح يشاركون المذبح . هكذا ايضاً أمر الرب أن الذين ينادون بالإنجيل من الإنجيل يعيشون » ١ كو ٩ : ١٣ - ١٤ . فكان يترك نصيبه بأسلوبه الرفيع ويقول : « اما أنا فلم استعمل شيئاً من هذا . ولا كتبت هذا لكي يصير في هكذا . لانه خير لي ان أموت من أن يعطل أحد فخري » . « فما هو أجري إذ وأنا ابشر اجعل إنجيل المسيح بلا نفقة حتى لم استعمل سلطاني في الإنجيل » ١ كو ٩ : ١٥ ، ١٨ .

من يتنازل عما هو عاضع لسلطانه، فإنه يستحق المدح لسماحته؛ ومن يكن بلا رحمة حتى فيما يختص بالآخرين يشجب .

ان أبانا ابراهيم كان كريماً في الصرف بسبب غناه ، وهذا ما تشهد به ممارسته للضيافة ، لدرجة أنه كان يجلس عند الظهر بالقرب من باب خيمته (تك ص ١) وينتظر لكي يستضيف

أحد الغرباء العابرين ؛ وهكذا استضاف بالحقيقة الملائكة كما يقول بولس الرسول ، أو بالحرى استضاف الله ذاته في شكل رجال وفي شكل ملائكة . « لا تنسوا اضافة الغرباء لأن بها اضاف اناس ملائكة وهم لا يدرون » عب ١٣ : ٢ .

هذه حال المساكين بالروح المطوّبة . فلا يخضع الغنى في غناه لأصحابه ويكون عبداً مسخراً في الأعمال . ان الغنى فيما يملك الإنسان من أمره ، فيملك الجواد ما يأتيه ويستأثر به حائلا بينه وبين مقومات البخل ؛ وقد يبلغ بالبخيل الأمر ألا يستطيع أن يبسط يده ويعطي صدقة واحدة لأحد ، مثل هذا الغنى يجعل صاحبه يبدو مملوكاً بعد أن كان مالكاً .

كان مخلصنا يدين هذه العبودية التي تستدعي الشفقة فيقول :

أسرى خدمة المال :

« لا يقدر أحد أن يخدم سيدين . لأنه اما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال » مت ٦ : ٢٤ .

« لا يقدر عادم أن يخدم سيدين . لأنه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال » لو ١٦ : ١٣ .

وليس بمحرّم أن يصير المرء غنياً ، انما ان يخدم الإنسان ثروة الغنى فيكون بها مقيداً كعبد حقير ، فهذا ما ينهانا عنه .

فلا نكن إذن مسترخين فى حياتنا ، فاترين فى أفكارنا ، ولا نحزن ، بل نسرّ بالحرى لدى سماع الحكم بالنجاة من الدينونة: « ولكن ويل لكم أيها الاغنياء . لانكم قد نلتم عزاءكم » لو ٦: ٢٤.

« فقال يسوع لتلاميذه الحق أقول لكم أنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات » مت ١٩ : ٢٣ .

فإن الكلمة لا تخص كل الذين فى وفرة من الثراء ، بل فقط من يضعون كل فكرهم فى الخيرات والممتلكات ، ويتركون أنفسهم تأسرها الأفكار وهم ليسوا مساكين بالروح .

وهذا ما بينه مرقس الرسول حينما ينقل بوضوح فكرة مخلصنا فيكتب هذه العبارات : « فتحير التلاميذ من كلامه . فأجاب يسوع ايضاً وقال لهم يا بنىّ ما اعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله » مر ١٠ : ٢٤ .

ان ما يغلق ملكوت السموات امام الإنسان ليس هو امتلاكه للخيرات ، بل ان يضع ثقته فيها . ومن ذا الذى يضع ثقته فى الأموال الا الذى لا يسمع كلمة ربنا القائلة: « لا تكنزوا

لكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ويسرقون لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك ايضاً » مت ٦ : ١٩ - ٢١ .

ولكن عند ذلك ربما تقول : « ماذا اترك إذن لورثتى؟ » .

- بقدر ما تركه هذا الفيلسوف العظيم ايوب ، وابراهيم البار واسحق ويعقوب ايضاً .

فى الواقع أنه لن ينقص شىء مع سخاء نعمة الله حتى يكون فى ذلك تعارض مع الجود فى عطيتك انه يعطيك آلاف المصادر للخيرات حينما تكون غنياً ، وربما تفقه فى الثقوى تكون « مسكيناً بالروح » .

ايهما أفضل واكثر نفعاً ، ان تترك ميراثاً لأولادك كنزاً سماوياً ، أو كنزاً مخفياً فى الارض يخفى معه قلبك ايضاً ؟ الكنز السماوى به تصبح اغنياء فى حرص ، أو فقراء يحق عليهم الثناء ، اولئك الذين يصيرون اغنياء حسب الناموس .

لان الذين كانوا من عشيرة ابراهيم كانوا متنبهين لهذه النقطة ، كانوا يتركون ميراثاً مملوءاً بركة لخلفهم .

الخيرات الارضية لعقب البركة :

حينما كان اسحق يبـــارك يعقوب كان يبتدىء بالبركة الى الميراث بالسماء :

« فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض . وكثرة حنطة وخمر » تك ٢٧ : ٢٨ .

لأن كل خيرات الأرض تضاف ايضاً إلى خيرات السماء في نفس البركة ، لأن كل الباقي يزاد للذين يطلبون ملكوت الله .

«لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم» مت ٦ : ٣٣ .

لكن الترتيب بالنسبة لعيسو كان عكسياً فقد ظهر أنه غير مستحق للبركة ، ولم يبدأ الميراث بالسماء . فماذا قال له أبوه ؟ « فأجاب اسحق أبوه وقال له هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك . وبلا ندى السماء من فوق » تك ٢٧ : ٣٩ .

أرأيت كيف يسبق من يلي نزولا هنا الاعلى، وذلك لايكون ايضاً عالياً تماماً من فيض الله بسبب سماحة كرم الله ، الذي يمطر على الأبرار وعلى الأشرار ويجعل الشمس تشرق على الأشرار وعلى الأبرار. « لأنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين » مت ٥ : ٤٥ .

تأمل إذن كيف تتلاءم دقة كلمات الكتاب المقدس مع ما يحق عليها . فمن ناحية قال بشأن ما يبدأ ببركة السماء تلك كلمة البركة التي وضعت في المسكان الأول : « فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض . وكثرة حنطة وخمر » تك ٢٧ : ٢٨ .

ومن ناحية أخرى لم يضع أولا فيما يبدأ بالأرض هذه الكلمة: « ليعطك الله » ، بل : « هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك وبلا ندى من السماء من فوق » تك ٢٧ : ٣٩ .

ذلك أنه حينما يكون هنالك الاقدام للعالم فقط لا تكون هناك بركة مثالية عالية .

المساكين بالروح لايغلظون افكارهم بالانتفاخ :

إذن طوبى للمساكين بالروح ، الودعاء في روحهم ، الذين هم معتدلون ، ولا يغلظون افكارهم بانتفاخ الغنى ولا يتعلقون بما لايبقى وبما يزول . أي الفقراء بسبب قانون الروح القدس، وفقاً لما قاله مخلصنا الصالح لتلاميذه : « الروح هو الذي يحيي ، أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي اكلمكم به هو روح وحياة. ولكن فيكم قوم لا يؤمنون » يو ٦ : ٦٤ .

† † †

مفهوم الروح فى الكتاب

فإن كلمة روح حينما نجدها فى الكتب الإلهية بطريقة غير محددة ، دون أن يكتنف معها شيء ، فهى تعنى على العموم إما روح الإنسان ، وإما روح الله القدوس .

فعن المعنى الأول يشير إليها ما هو مكتوب فى سفر زكريا النبى فيما يختص بالله: «باسط السموات ومؤسس الأرض وجابل روح الإنسان فى داخله » زك ١٢ : ١ .

ويشبه ذلك ايضاً ما قاله الملك حزقيا حينما كان مريضاً وكانت روحه على وشك أن تخرج من جسده . يقول اشعياء النبى: « مسكنى قد انقلع وانتقل عنى كخيمة الراعى . لففت كالحائك حياتى . من النول يقطعنى . النهار والليل تفنينى » اش ٣٨ : ١٢ .

هذا ايضاً ماقيل فى سفر باروخ النبى: « وافتح يارب عينيك وانظر فإنه ليس الموتى الذين فى الهاوية الذين ابتلعت أرواحهم من احشائهم يعطون مجداً وبراً للرب . لكن النفس الحزينة إلى الغاية التى تمشى منحنية وضعيفة والعيون الكليلة والنفس الجائعة تعطيك مجداً وعدلا يارب » باروخ ٢ : ١٧ - ١٨ .

ويشبه ذلك ايضاً ما قاله ربنا فى الأناجيل : « اما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف » مت ٢٦ : ٤١ .

وما كتبه بولس الرسول إلى أهل كورنثوس: « لأن مَن من الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذى فيه . هكذا ايضاً أمور الله لا يعرفها أحد إلا الله » ١كو٢ : ١١ .

وعن المعنى الثانى تشير ايضا بطريقة غير محددة تلك الكلمات التى قالها الرسول : « اسلكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد » غل ٥ : ١٦ .

وايضاً : « غير متكاسلين فى الاجتهاد . حارين فى الروح . عابدين الرب » رو ١٢ : ١١ .

وايضا : « واما ثمر الروح فهو محبة ، فرح ، سلام ، طول اناة ، لطف ، صلاح ، إيمان » غل ٥ : ٢٢ .

وفى مكان آخر : « لأن الروح يفحص كل شيء حتى اعماق الله » ١ كو ٢ : ١٠ .

وقد حاول البعض مع ذلك أن يفهموا المقصود بلفظة الروح فى قوله : « طوبى للمساكين بالروح » مت ٥ : ٣ . انه الروح الشرير الذى كان يقول عنه بولس الرسول حينما كتب إلى اهل افسس : « التى سلكتم فيها قبلا حسب دهر هذا العالم حسب رئيس سلطان الهواء . الروح الذى يعمل الآن فى ابناء المعصية »

١ ق ٢ : ٢ . حتى ان المطوّبين يكونون من اولئك الفقراء الذين تحرروا من روح العدو ومن كل حركة وكل هوى شرير .

لكن هذا ليس صحيحاً . فإننا لا نجد فعلا فى اى مكان آخر من الكتب المقدسة ان الاشارة إلى الروح الشرير والوسواس تكون بطريقة عامة غير محدودة، بل تكون حتما مع اضافة، مثل:

« إذا خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز فى اماكن ليس فيها ماء يطلب راحة ولا يجد » مت ١٢: ٤٣ .

« متى خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز فى اماكن ليس فيها ماء يطلب راحة . وإذ لا يجد يقول ارجع إلى بيتى الذى خرجت منه » لو ١١: ٢٤ .

وايضا : « ولما خرج من السفينة الوقت استقبله من القبور انسان به روح نجس » مر ٥ : ٢ .

«لأنه امر الروح النجس ان يخرج من الإنسان » لو ٨: ٢٩.

وايضاً: « فلما رأى يسوع ان الجمع يتراكضون انتهر الروح النجس قائلا له ايها الروح الأخرس الاصم انا آمرك . اخرج منه ولا تدخله ايضاً » مر ٩ : ٢٥ .

بالروح القدس تطرد الروح الشريرة

يمكننا ان نفهم بتقوى ايضا الآية التى نحن بصددها حسب هذا الرأى، فيكون معناها : «طوبى للذين بواسطة الروح القدس قد طردوا بعيدا عنهم جميع الأهواء المخزية وهم فقراء منها وكانوا اطهارا يقولون الحق بالاكثر» . لأنه حيث يسكن الروح الإلهى يكون حتما هروب الأعداء وتضاءلهم والقضاء عليهم .

لنصر إذن « مساكين بالروح » بكل وسيلة ، ولنتكن لنا افكار معتدلة ، لنخفف من حمل المال الثقيل ومن احمال الممتلكات والاهواء ، حتى لا يغلق بكثرتها وكبر حجومها امامنا الباب الضيق المحصور لملكوت السموات .

« ما أضيق الباب واكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة » وقليلون هم الذين يجدونه » مت ٧ : ١٤ .

إذن « طوبى للمساكين بالروح » مت ٥ : ٣.

تخيلات المجد الباطل :

وفى الواقع ان الذين يحتقرون امتلاك المادة تخاذلا منهم فى سبيل الروح والقوانين الإلهية ، ويصرفون من أجل شهوات الجسد وتخيلات المجد الباطل باسراف كثير بلا فائدة ، هؤلاء

يلزمنا ان نرثي لحالهم من اجل اسرافهم ، كما اننا لا ندعو محبي اللهو كرماء .

ويبدو لي ان دلالة لفظة المساكين في قـــول لوقا البشير بصفة عامة :

« طوبا كم ايها المساكين لان لكم ملكوت الله » لو ٦ : ٢٠. ليست مطلقة ولاينقصها التحديد الخاص حسب قول متى البشير :

« طوبى للمساكين بالروح » مت ٥ : ٣ .

فى الواقع ورد بعد هذه التطويبات قوله : « طوبا كم إذا ابغضكم الناس وإذا افرزوكم وعيروكم واخرجوا اسمكم كشرير من اجل ابن الإنسان » لو ٦ : ٢٢ . وبهذا تشمل كل التطويبات بنفس الطريقة ، وفضلا عن ذلك فهى تتفق مع جميعها .

اشتراط الطوبى بالارتباط بالمسيح :

« طوبا كم ايها المساكين » لو ٦ : ٢٠ . يجب ان نفهم انه مكتوب ايضاً معها : « من اجل ابن الإنسان » .

بمعنى : « طوبا كم ايها المساكين » بسبب ابن الإنسان .

وهذا يعنى نفس الشيء كقوله : « طوبى للمساكين بالروح » مت ٥ : ٣ .

الجحود باب للتجديف

كثيرون فعلا ليسوا مساكين من أجل ابن الإنسان أو من أجل المسيح ، لايشكرون الله فى حالة الفقر الذى يأتى بسبب الحرمان والضيق ، ولايعرفون الجميل وهم يجدفون ضد الله .

طوبى للرحماء من أجل ابن الإنسان . « طوبى للرحماء لانهم يرحمون » مت ٥ : ٧ .

يروق للبعض أن يفعلوا ذلك لكى يظهروا للناس ، اولئك ليسوا معلوّبين.

« طوبى لصانعى السلام » مت ٥ : ٩ . إذا كانت وداعتهم من أجل ابن الإنسان .

فى الواقع اننا نرى البعض يؤسسون السلام مع بعضهم البعض على القسوة والاتفاق السوء الذى يقول عنه داود النبى فى المزامير : « لانى غرت من المتكبرين إذ رأيت سلامة الاشرار » مز ٧٣ : ٣ .

« طوبى للأنقياء القلب » مت ٥ : ٨ . من أجل ابن الإنسان.

لا ينقى القلب بدون المسيح :

من يستطيع أن يكون نقى القلب دون أن ينظر نحو إبن الإنسان ؟ فاذا حوّل المرء نظره عن التأمل فى إبن الإنسان يصير

عارجاً وبعيداً عن نقاوة القلب بالكلية لذلك كتب يوحنا اللاهوتي:

« أيها الأحباء، الآن نحن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سنكون ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو. وكل من عنده هذا الرجاء به يطهر نفسه كما هو طاهر » ١يو ٣ : ٢ - ٣ .

البقاء في الطهارة اكراما لجسد المسيح :

وكتب ايضاً اغناطيوس لابس الإله إلى بوليكارب بهذه العبارات : « إذا كان أحد يستطيع أن يبقى في الطهارة اكراماً لجسد ربنا يسوع ، فليبق في الإتضاع ؛ لكن ان كان يفتخر فقد ضاع » . فإنه يبدو في الواقع أن بقاءه في الطهارة ليس من أجل إبن الإنسان .

شواهد الوداعة :

« طوبى للودعاء » مت ٥ : ٥ . من أجل إبن الإنسان .

فإن اولئك هم الذين بسبب القوانين نفسها يحرمون الغضب، والضجة والحقد والتجديف وكل قساوة وما أوضحه بولس الرسول تفصيلا :

« ليرفع من بينكم كل مرارة وسخط وغضب وصياح وتجديف مع كل خبث » اف ٤ : ٣١ .

هؤلاء هم الذين يجب أن تطوبهم ، وليس اولئك الذين

يشبهون المجانين عديمي الاحساس فقد أصبحوا خارج الطبيعة . لأن هؤلاء بحق لن ينالوا أكاليل الفضيلة كما انه لن يكفي ما يصيبهم من العقاب من أجل القسوة .

« طوبى للجياع والعطاش إلى البر » مت ٥ : ٦ .

من المؤكد أن ذلك يكون من أجل إبن الإنسان . فإن الذين يطلبون المسيح وهم جياع وعطشى إليه ، يبحثون عن البر الحقيقي وليس عما يسر الناس مطلقاً ، الأمر الذي يتسبب عنه مراراً كثيرة الكذب. لأن كثيرين بعد أن ألفوا المقالات الطويلة عن البر ، والعدل ، لم يستطيعوا أن يحدوا ما هو عادل حقاً .

بهذا المعنى يعلمنا سفر المزامير المقدس كيف يميز العدل الحقيقي .

« تحطمهم بقضيب من حديد مثل اناء خزاف تكسرهم » مز ٢ : ٩ .

كذلك فإن هذه العبارات : « طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون » لو ٦ : ٢١ . وأيضاً : « طوبى للحزانى لأنهم يتعزون » مت ٥ : ٤ . متفقة مع نفس المعنى، ويفهم منها أيضاً أنها من أجل إبن الإنسان .

وفي الواقع ليست كل الأحزان وهي أصل تعبنا ودموعنا ، تأتي من أجل إبن الإنسان أو تثاب عنها الطوبى من عند الله ، وفي ذلك كان بولس الرسول أيضاً يقول :

الحزن بحسب مشيئة الله

« لأن الحزن الذى بحسب مشيئة الله ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة . وأما حزن العالم فينشىء موتاً » ٢ كو ٧ : ١٠ .

ومن الناس من يحزن من أجل العالم ويأسف على الحرمان من شهوات الجسد ويجعل من خسارته لشىء من الأشياء العارة سبباً لأنينه هكذا كان الاسرائيليون حينما تذكروا أوانى اللحم فى مصر ، كانوا يبكون فى الصحراء ويثيرون نهم بطونهم الشرهة ويطلبون من موسى أن يشبـــع رغبتهم ، حتى قال موسى لله : « من أين لى لحم حتى أعطى جميع هذا الشعب . لأنهم يبكون علىّ قائلين اعطنا لحماً لنأكل » عدد ١١ : ١٣ .

† † †

الحزن المكروه

ويقع فى ذلك الحزن المتبلد المكروه المشجوب ايضاً أولئك الذين يبقون صامتين بسبب عطايا تافهة بسيطة ويشتهون أموال الغير ظلماً ؛ كما كتب عن آخاب ملك اسرائيل الذى اشتهى أن يأخذ كرم نابوت دون موافقته . يقول الكتاب :

« فدخل آخاب بيته مكتئباً مغموماً من أجل الكلام الذى كلم به نابوت اليزرعيلى قائلا لا أعطيك ميراث آبائى . واضطجع على سريره وحوّل وجهه ولم يأكل خبزاً » ٣ مل ٢١ : ٤ . فنال موضوع شهوته بعد أن قتل هذا الرجل .

بهذا الحزن المكروه من الله نجد أيضاً اولئك الذين ينتحبون على موت أحبائهم فى غير اعتدال أو لياقة ، فيجلبون التجديف وليس الإيمان فيما يختص برجاء القيامة ، وهم الذين يقول عنهم بولس الرسول :

« ثم لا أريد أن تجهلوا أيها الاخوة من جهة الراقدين لكى لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم » ١ تس ٤ : ١٣ .

† † †

الحزن على الخطا

من هو إذن من الحزانى يكون مغبوطاً يبكى من أجل ابن الإنسان ؟

أنه ذلك الذى يسكب الدموع على خطاياه ، ويطلب أن يتطهر ويكون قريباً من المسيح ، وكان سبب حزنه هو الانفصال عن الله لأنه اخطأ ؛ يقول مع داود :

« لأنى اخبر بإثمى واغتم من خطيتى » مز ٣٨ : ١٨ .

« جعلت لباسى مسحاً وصرت لهم مثلا » مز ٦٨ : ١٢ .

« كن ينوح على أمه انحنيت حزيناً » مز ٣٥ : ١٤ .

« جداول مياه جرت من عينى لأنهم لم يحفظوا شريعتك » مز ١١٩ : ١٣٦ .

فإنه بالتطهير بمثل هذه الممارسات يرتفع الإنسان إلى درجة كبيرة ويقتنى حباً فى الآخرين أيضاً الذين يستدعى حالهم الآنين ويقول مرنماً :

« الحمية أخذتنى بسبب الأشرار تاركى شريعتك » مز ١١٩ : ٥٣ .

بهذه الطريقة أيضاً كان أرميا النبى حزيناً إذ يرى مواطنيه يخطئون ويفرحون يقول :

« لم أجلس فى محفل المازحين مبتهجاً . من أجل يدك جلست وحدى لأنك قد ملأتنى غضبا » ار ١٥ : ١٧ .

كذلك كان صموئيل النبى وقد كان يرى منذ طفولته ما هو خفى ، وأضحى مشهوراً بين الأنبياء والقضاة ؛ فإنه عندما رأى شاول الذى كان قد مسحه ملكا ، قد اخطأ وكان مسيئاً لاحتقاره وصايا الله ، وكان مرفوضاً بعيداً عن رضى الله ، فبينما كانه صموئيل النبى يحيد عنه كان يبكى على خطيته ، إلى أن كشف الله له أن هذه الخطية لا شفاء منها . ويجدر بنا أن نستمع إلى كلمات الكتاب الملهم به من الله :

« ولم يعد صموئيل لرؤية شاول إلى يوم موته لأن صموئيل ناح على شاول والرب ندم لأنه ملك شاول على اسرائيل . فقال الرب لصموئيل حتى متى تنوح على شاول وأنا قد رفضته عن أن يملك على اسرائيل . املأ قرنك دهنا وتعال أرسلك إلى يسى البيتلحمى لأنى قد رأيت فى بنيه ملكا » ١صم ١٥ : ٣٥ - ١٦ : ١ .

بنفس هذا الأسلوب أيضا كان بولس الرسول ينصرف حينما كتب إلى أهل كورنثوس :

« أن يذلنى إلهى عندكم إذا جئت أيضا وأنوح على كثيرين من الذين اخطأوا من قبل ولم يتوبوا عن النجاسة والزنى والعهارة التى فعلوها » ٢كو ١٢ : ٢١ .

الحزن لاسترداد كرامة النفس

توجد أيضاً درجة عليا عند صفوة الذين يشعرون بالحزن وهم من المغبوطين . فقد يأخذ الإنسان فى اعتباره كرامته بعد أن يطهر نفسه من المادة ويعرف لنفسه كرامتها ، وكيف أنها بعد أن سقطت من الفردوس ونبذت بعيداً من نعمة الخلود ، لبست قصان الجلد التى ترمز إلى حالة الموت ، فيشتهى الانطلاق مع المسيح كقول بولس الرسول :

« فإنى أنا الآن اسكب سكيباً ووقت انحلالى قد حضر » ٢ تى ٤ : ٦ .

« فإنى محصور من الاثنين لى اشتهاء أن انطلق وأكون مع مع المسيح . ذاك أفضل جداً » فى ١ : ٢٣ .

« فإننا نحن الذين فى الخيمة نئن مثقلين إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكى يبتلع المائت من الحيوة » ٢ كو٥ : ٤ .

† † †

عطش النفس إلى الله

كان داود النبى أيضاً يتألم من جراء هذا الحنين والشوق إذ قال:

« عطشت نفسى إلى الله إلى الإله الحى . متى اجىء واتراءى قدام الله . صارت لى دموعى خبزاً نهاراً وليلاً إذ قيل كل يوم أين إلهك » مز ٤٢ : ٢ - ٣ .

وأنطونيوس العظيم أيضاً كان يتحمل حينما كان يصعد وسط أمواج حياة النسك الطاهر ، حتى درجة التحرر من الجسد. وكان يفكر فيما يليق برفعة الروح ، وكان يجهد نفسه ويتتعب فى كل مرة يضطر إلى أن ينزل إلى طعام الجسد .

وقد كتب عنهم :

« طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون » لو ٦ : ٢١ .

ويدعو لوقا السرور والتعزية « ضحكاً » بينما لم يكتب متى البشير « لأنكم ستضحكون » ، بل : « لأنهم يتعزون » مت ٥ : ٥ .

ويدعو الكتاب الإلهى عادة السرور ضحكاً . لذلك بعد أن ولدت سارة اسحق قالت :

« قد صنع إلى الله ضحكاً . كل من يسمع يضحك لى » تك ٢١ : ٦ .

وقال أيوب أيضاً عن الله : « عندما يملأ فاك ضحكاً وشفتيك هتافاً » (٨ : ٢١) .

اما ضحك الجهلاء فيشجبه سفر الحكمة قائلا :

« لأنه كصوت الشوك تحت القدر هكذا ضحك الجهال . هذا ايضاً باطل » (٧ : ٦) .

أين هم اولئك الذين يضيعون طول اليوم فى مشاهدة العروض ، ويذهبون ليلا إلى أماكن اللهو الدنس ، ويصيحون مثل الغربان بكلمات مضحكة ، أنهم قوم ممقوتون يجلبون العار على الصغار فضلا عن الرجال الكاملين ؟

لكنى ربما استمع إلى مَن يردّ علىّ فى ذلك قائلا : « لماذا تشتمنا دون أن تكون أنت ذاتك مجروحاً فى شىء ؟ أنستهزىء بالاجتماعات التى تتم فى الكنيسة ؟ أ كنا نحث غيرنا على الذهاب إلى الملاهى ؟ أ لا فاصمت إذن كما انتا صامتون » .

من السهل أن نقول لهم : « أنتم لكم طريق منزلق ينحدر إلى أسفل ، هو طريق الملذات يعرف لجأة الكثيرين مرة واحدة فى غير حاجة إلى أى كلمة أخرى . اما أنا فاذ أدرب فى طريق الفضيلة المتعب الوعر ذى المنحدرات ، فإنى احتاج إلى أوتار

روحانية كثيرة ، حتى بعد جهد أجذب واحداً واحداً إلى المستويات العليا . فليس يكتسح النهر فى فيضانه السهول المغطاة بالسنابل والكروم والأشجار التى تثمر الفاكهة وغير المثمرة ، إذا اغلق الوارع المدخل امام المياة الجارفة .

لنكن هادئين إذن ولنتوقف عن الضحك غير اللائق وعن الاباحية ، قبل أن يجىء الموت الذى لا مفر منه ؛ ولنحزن حقاً فى غير معاناة الجهال غير المتعلمين ذوى الأفكار السقيمة ، ولنسمع كلمات الأناجيل المقدسة القائلة :

« طوباكم أيها البا كون الآن لأنكم ستضحكون » لو ٦ : ٢١ .

« طوبى للحزانى لأنهم يتعزّون » مت ٥ : ٤ .

المجد والتسبيح للمسيح الذى يرفعنا إلى مثل هذه الرفعة وإلى هذا السمو فى الفضيلة فى حياة النسك . له المجد إلى الأبد آمين ؟

† † †